امرأة فاضلة

صفة المرأة تبقى بيتها ...
المرأة الفاضلة تاج لبعلها ...
للمرء عمرها يفوق الأولى
(أمثال سليمان)

الى زوجتي — د كرى وتهيد
على رجاء اللقاء

خليل ثابت بك
رئيس تحرير المقطم

فجعت اسرة المقتطف والمقطم في الصيف الماضي في وفاة سيدتين كريمتين من سيداتها ، تأرجت سيرتهما بعطر الفضل والحكمة ومكارم الاخلاق وهما السيدة فريدة مكاريوس قرينة المرحوم شاهين مكاريوس بك أحد منشئي هذه الدار والسيدة « إما » كريمته وقرينة خليل ثابت بك أطال الله عمره . والفصل التالي قطعة من الأدب العالي علاوة على كونها رثاء خارجاً من صميم نفس مكلومة وقلب زوج وأب فقد زوجهُ وأمَّ أولادهِ وشريكة عمرهِ ، وصورة بليغة للمرأة الفاضلة التي قال فيها سليمان الحكيم « إنَّ ثمنها يفوق اللآلىء » . . . المحرر

أرقدي بسلام بين أكاليل الورد والرياحين . ولتصعد روحك الكريمة محمولة على أجنحة الأملاك الى خالقك العزيز في أعلى عليين — انثناة الطاهرة والزوجة الوفية والأم الرؤوم والمربية الكاملة وربة البيت الحكيمة والعقيلة التي قال فيها وفي مثيلاتها الشاعر العربي ما قال لما فضل بعض النساء على الرجال

خمسة وثلاثون عاماً قضيناها معاً في وارف من ظلّ السعادة ونعيم مقيم من الهناء والصفاء في كنف حنانك الغامر وحبك الخالص ومودتك الصافية فنعمت بما لا ينعم به سوى الازواج الذين ترضى العناية عنهم بفضل الله لا بفضلهم . وألفت

هذه الحياة وحسبها باقية حتى انقضت الكارثة وراشت النبلة سهمها وعدت عادية الزمان فغاب كوكب سعدي وهنائي ودوت بهجة حياتي بانضب ضياء الامل في عيني يأساً وتبدلت مظاهر الحياة واسودت أيام البيض . فغصنا في بحر من الهم والاسى ما امتدنا في حياتك الوقوف على ساحله فكيف نخوض الآن عبابه ونجرع صاب مائه

وقطعنا مراحل هذه الحياة يداً بيد نبدأناها وحدنا الى أن حبتنا العناية الثمر فكان بطيب أرومتك وحسن شمائلك وطهارة نفسك ثمراً شهياً قرّت به أعيننا وتضاعفت بطيبه سعادتنا فامتزجت في بيتنا الموسيقى التي كنت تحبها وتجيد عزفها وصوتك العذب بموسيقى أصوات صغار ملائكتنا وهم يمجون ويمرحون ويلعبون فيطربونا بابتسامهم وألعابهم وسرورهم ويلينون ما في أنفسنا ويخشون علينا مطارف من بهجة الحياة فاجتزنا تلك المراحل بهناء وغبطة وصفاء الى ان سيرنا القضاء فجأة في طريق آخر ليس لنا به عهد ولا صلة وأوقفنا فوراً امام عتبة الابدية فاجتزت أنت بابها اليها بسلام وأوصد الباب في وجهي فافترقنا . ولولا التقى وحرصي على الفتاتين والصغير لآثرت اللحاق بك فلا نفترق أبد الدهر

كانت عواصف الحياة تهب فأسمع عجيجها وضجيجها وأصغي الى حفيف اوراق الشجر وهي تنوح وتأوه بعلها فلم تخطئ تلك العواصف باب دارنا . فاذا هبّ منها شيء علينا عرفت كيف تدرئينهُ بحكمتك أو تخففين حمله بحسن تدبيرك وصفاء ذهنك وصفاء قلبك حتى هبت العاصفة الجائحة الجامحة فهدّت حياتنا وحطّمت القضاء وطوي سفر الرجاء وضاعت حيل الاطباء ولم ينفع سهر البنين وحنو البنات وصلاة الجميع وابتهالهم الى بارىء النسمات

وأطوف الآن في غرف الدار فأرى صورة وجهك الصبيح وأبصر آثار يديك ومظاهر سلامة ذوقك وجمالي عنايتك واتقانك ثم آوي الى مخدعنا أتلمس الراحة

كما يلتصق الجريح بالمدوع فاذا سكن الليل وهدأ الصوت وكل البدن وأغفيت عيناي اني اني في حلم وان المصاب رؤيا فأستيقظ عني الآلام وانتعاش الهم وزوال الكآبة بوسن فلا تثبت الحقيقة ان تلوح لي من خلال سجف الظلام وأراني وحيداً فريداً فيخفق قلبي أسىً ويسيل دمع اليأس بضياع الرجاء

وليس السواد حداداً وتتخذه دلالة وشعاراً فاذا حان وقت المبيت خلعناه أما الذي لا يخلع مهما طال الزمان وسيلازمنا في النهار والليل فذلك المستقر في صدورنا واللوعة التي تحرق أكبادنا ومرارة الفراق التي استقرت في شغاف قلوبنا

أقول — والله على ما أقول شهيد — انك أيتها الحبيبة ما عرفت للحقد معنى ولا أضمرت لمخلوق بغضاً أو ضغناً. ويقيني أنك غادرت الدنيا وليس فيها من عارفيك الا كل آسف عليك وذاكر لسجاياك ومعترف بما طبعت عليه من حب الصفاء وكره الخصام والشقاق وايثار السلام والوفاق

وكنت برقة طبعك وعذب حديثك وابتهاجك بالحياة وفهمها زينة المجالس ما دخلت مقام هناء إلا زدته غبطة وما حللت مجلس حزن او عزاء الا سكبت فيه من جميل القول وصدق العاطفة بلسماً يخفف من وقع الألم ويهوّن نصل المصاب

وأنت التي أحبّبت بهجة الحياة وكانت نوراً يفيض بهذه البهجة على الذين حولك ولاسيما أهل بيتك فبكِ اليوم نورك وغادرت حياة كنت من عناصر محاسنها إيثاراً لحياة أخرى تعدين فيها لي بيتاً مقبلاً تتوافر فيه أسباب الهناء كما صنعت في هذه الدنيا

وانا الذي كنت انت سر نجاحه في ما أصاب ومصدر راحته وركن ارتياحه لعطفك وحنانك وحبك ووفائك وحكمتك ومكارم خلقك وكرم طباعك وصدق اخلاصك من يطارده الآن همي ويكشف غمي ويمحو كآبتي ومن يمسح دمعي ويبرد لوعتي ومن يخفف حزني ويريح كربتي

لقد كنت واسطة عقدنا فانزعك القضاء . وانا اليوم المسؤول الى الله واليك

بأن اصون بانيه واحرص على سمطه ولآليه وسأفعل الى ان يسترد الله وديعة نفسي فطيبي نفساً وقرّي عيناً فمهدي لك مقدس ما دام في عرق ينبض

وما كنت اريد ان تسبقيني يا سابقة الى كل معروف وكان بل كنت اتوقع ان تكوني تعزيتي عند غروب شمس حياتي كما كنت عونى فيما مضى فتجلسي بجانبي وانا مسجى على سرير مرضي الاخير بعد ان تخفني أوجاعي وآلامي كما كنت تضمين في هذه السنين وتغمضي عيني بأناملك فاذهب من هذه الدنيا قرير العين ناعم البال

وقد عودتني ان آلقي عليك اتكالي فأصبحت اليوم كمن فوّضت اركان عزه وأظلمت منارة هداه فلا يدري أنّى يلتمس الحكمة والرشاد

ويعزونني بايراد الامثلة والشواهد ولست بجاهل لمعناها ولا منكر لآياتها ولكن شعور من يرى ناراً تلتهب امامهُ غير احساس من يكوي الجمر احشاءه

من لي بان يزيل الالم ساعة فأوتيك بغير هذا القلم المضطرب وأتيك بغض حقك عليّ وأصوغ لك ما أنت اهلٌ لهُ من عقود الشكر وقلائد الاعتراف بالجميل وصدق الوفاء . ولكن اذا عجزت وغاب جثمانك عنا فروحك قائمة بيننا وسيرتك ماثلة أمامنا وصورتك منقوشة على صفحات قلوبنا وأريج فضائلك يعطر أرجاء بيتنا وشمائلك قدوة لنا وذكراك مقدسة في هيكل لك في خفايا ضلوعنا

ما أصعب الفراق وما أمرّ مذاق كأسه . ولكننا سنلتقي — أجل سنلتقي ولئن يطول الفراق فالرحمن الذي جمعنا اولاً سيجمع شملنا ثانياً

ياحبيبة الصبا

يا شريكة العمر

يا أم أولادي

يا زوجتي !